مجالس الحديث وآداب روايته

بقلم الدكتور محمد عجاج الخطيب
الأستاذ المساعد في كلية الشريعة

آ ـ مجالس الحديث :

١ ـ لقد عرفت حلقات العلم ومجالسه منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، حين كان يخلو ببعض أصحابه ـ في الأيام الأولى من الدعوة الى الاسلام ـ في داره أو في دورهم ، يتلو عليهم مايتنزل عليه من القرآن الكريم ، ثم صارت دار الأرقم بن أبي الأرقم مقر المسلمين حين كانت الدعوة سرية يلتف حوله المسلمون الأوائل بعيدا عن عيون المشركين ، يتذاكرون كتاب الله ، ويتعلمون مبادىء الاسلام بين يدي الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، ثم ما لبث أن صار المسجد محط أنظار المسلمين ، يلتقون فيه للعبادة والتعلم والقضاء والفتوى ، ومنه يخرجون للجهاد في سبيل الله ، وإليه يرجعون في كل أمر يهمهم ، أو خطب يلم بهم ، أوسرور يعمهم .

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتخول أصحابه بالموعظة ، فاذا جلس جلس إليه أصحابه حلقا حلقا[1] ، قال أنس بن مالك رضي الله عنه : (انما كانوا اذا صلوا الغداة قعدوا حلقا حلقا ، يقرؤون القرآن ويتعلمون الفرائض والسنن)[2] .

وكثرت حلقات العلم ومجالسه واتسعت مع اتساع رقعة البلاد الاسلامية ، وكثرة المساجد فيها ، وقد نصب الخلفاء الراشدون الاربعة ومن جاء بعدهم من خلفاء المسلمين أكابر الصحابة والتابعين وأهل العلم في المساجد ، لتعليم المسلمين وإحياء السنن ، وحث

(١) السنة قبل التدوين ص ١٤٧ عن فتح

المسلمون أبناءهم على طلب الحديث النبوي وحفظه ، وحضوهم على مجالسة أهل العلم والاخذ عنهم ، من هذا ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : « تفقهوا قبل أن تسوّدوا »[1] وقال : « تعلموا الفرائض والسنة كما تتعلمون القرآن »[2] وقول علي رضي الله عنه : « تزاوروا وتذاكروا الحديث، فانكم الاتفعلوا يدرس[3] ووقف عمرو بن العاص على حلقة من قريش فقال : « مالكم قد طرحتم هذه الأغيلمة ؟ لاتفعلوا ، وأوسعوا لهم في المجلس ، واسمعوهم الحديث وأفهموهم إياه ، فانهم صغار قوم أوشك أن يكونوا كبار قوم ، وقد كنتم صغار قوم فأنتم اليوم كبار قوم »[4] .

وقد روي عن كثير من الصحابة والتابعين حضهم على حفظ الحديث وتبليغه والترحيب بطلابه حتى غصت حلقات العلم بطلابه، وكثروا كثرة تثلج لها الصدور ، وتشرق لها النفوس ، فقد كانت حلقات العلم في مكة والمدينة كالروضة يختار منها طالب العلم ما يشاء[5] ، حتى ان عبد الملك بن مروان أحد أكابر خلفاء بني أمية أعجب بحلقات العلم في عهده حين زار المسجد الحرام فوجد فيه حلقا لا تحصى ، تضم طلاب العلم ، فسأل عن شيوخ تلك الحلقات ، فكان فيها عطاء ، وسعيد بن جبير ، وميمون بن مهران ومكحول ، ومجاهد ، وغيرهم ، فحث أبناء قريش على طلب العلم والمحافظة عليه[6] .

٢ ــ ولم تقتصر مجالس العلم على مساجد ينبوع الاسلام مكة والمدينة ، أو على قطر دون آخر ، بل كانت عامة كثيرة فقد كانت حلقات العلم تعقد في كل مكان ، حتى ان أحد الصحابة كان

(١) السنة قبل التدوين ص ١٤٧ عن فتح الباري .
(٢) السنة قبل التدوين ص ١٤٧ عن جامع بيان العلم وفضله .
(٣) المرجع السابق ص ١٤٧ عن شرف أصحاب الحديث .
(٤) أنظر كتابي السنة قبل التدوين ص ١٤٨ عن شرف أصحاب الحديث .
(٥) أنظر السنة قبل التدوين ص ١٥١ .
(٦) المرجع السابق عن المحدث الفاصل .

يحدث الناس فيكثرون عليه ، فيصعد فوق بيت ويحدثهم[1] .

وقد بلغ عدد طلاب الحديث في الكوفة قبل سنة ثمانين من الهجرة أربعة آلاف طالب[2] سوى طلاب الفقه . وغص مسجد دمشق بحلقات العلم الكبيرة فقد كانت حلقات أبي الدرداء رضي الله عنه تضم نيفا وخمسمائة وألف طالب[3] ، الى جانب حلقات غيره من شيوخ دمشق ، التي كان يكتب الطلاب فيها . كما كانت تعقد حلقات العلم ومجالسه في حمص وحلب والفسطاط والبصرة والكوفةواليمن وفي جميع بلاد الاسلام على مر العصور .

٣ ـ وقد قيض الله تعالى لهذه الأمة أساتذة أوتوا العلم والأدب وأصول التربية ، ترعرعوا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويدي أصحابه وتابعيهم رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، واجتهد القائمون على التعليم ـ في تلك العصور ـ في تعليم تلاميذهم وجلسائهم ، واعتنوا عناية عظيمة بالنشيء الجديد ، فنسمع باسماعيل ابن رجاء ـ من أقران الاعمش ـ يجمع الصبيان ويحدثهم[4] . ويمر رجل بسليمان بن مهران الأعمش وهو يحدث فيقول له : تحدث هؤلاء الصبيان ؟ فيقول الأعمش : هؤلاء الصبيان يحفظون عليك دينك[5] .

وكان مطرف بن عبد الله يقول لطلاب الحديث : (أنتم أحب اليّ مجالسة من أهلي)[6] وكان سفيان الثوري يقول في طلاب الحديث : (لو لم يأتوني لأتيتهم فيبيوتهم)[7]

٤ ـ وكان بعض المحدثين يذهب الى أسواق بعض الصناعات والحرف فيحدث أهلها حتى نسب

---

(١) أنظر السنة قبل التدوين ص ١٥٠ .

(٢) أنظر المرجع السابق ص ١٥٠ .

(٣) المرجع السابق ص ١٥١ عن تاريخ دمشقلابن عساكر مخطوط دار الكتب الظاهرية .

(٤) أنظر كتاب العلم لزهير بن حرب مخطوط الظاهرية ص ١٩٠ .

(٥) (و ٦ و ٧) أنظر كتاب أصول الحديثص ١٠٣ .

بعض المحدثين إليها ، كالبزاز والبزار والحناط وغير ذلك ، ومن هـذا أن وكيع بن الجراح ـ (المولود سنة ١٢٩ والمتوفى سـنة ١٩٧ هـ) ـ أحد أكابر علماء القرن الثاني كان يمضـي في الحر وقت القيلولة الى قـوم سقائين يحدثهم ، ويقول : (هؤلاء قوم لهم معاش لا يقدرون أن يأتوني) فيحدثهم بتواضع[١]

وكان الوليد بن عتبة ـ (المولود نحو سنة ١٧٦ والمتوفى سنة ٢٤٠هـ) ـ يقـرأ في مسجد باب الجابيـة بدمشق مصنفات الوليد بن مسلم ـ أحد أكابر علماء دمشق (المولود سنة ١١٩ هـ والمتوفى سنة ١٩٤هـ) ـ وكان رجل يأتيه بعد فوات ربع المجلس أو ثلثه فيعيده عليه ، ولمـا تكرر هذا منه سأله الوليد بن عتبة عن تأخره فقال له : (أنا رجل معيل ولي دكان في (بيت لهيا)[٢] فان لم أشتر حويجاتها من غدوة ثم أغلق وأجيء أعدو والا خشيت أن يفوتني معاشي) فقال له الوليد : لا أراك هاهنا مرة أخرى . فكان الوليد يقرأ المجلس ويأخذ الكتاب ويمر الى (بيت لهيا) حتى يقرأ عليـه المجلس في دكانه[٣] .

ومثل هذه الأخبار كثيرة ، وقد كان طلاب العلم في غايـة الأدب والاحترام مع شيوخهم ، وسنذكر بعضـ هـذا الجانب بعـد قليل ان شاء الله .

٥ ـ وكانت لحلقات الحـديث ومجالسه مكانة رفيعة ، ومنزلـة عظيمة ، ونظام فريد ، فقد كانت تفتتح بتلاوة بعضـ آيات مـن القرآن الكريم ، يرتلها طالب جيد القراءة ، حسن الصوت ، ثم يبسمل الشيخ، ويحمدالله عزوجل على نعمه، ويصلي ويسلم على الرسول صلى الله عليـه وسـلم ، ويشـرع في التحديث مما اختاره من الاحاديث سـواء من حفظه أم من كتابه ، بصوت واضح يسمعه البعيد كما

(١) أنظر الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع مخطوط الاسكندرية ص ٣٦ : آ .
(٢) بيت لهيا بكسر اللام وسكون الهاء وياءوألف قرية بغوطة دمشـق ، والنسبة إليهـا بتلهي بفتح الباء والتاء وسكون اللام . أنظر معجم البلدان جـ ١ ص ٧٨٠ .
(٣) أنظر الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ص ٣٦ : ب .

يسمعه القريب ، ويشرح الحديث ، ويبين غريب ألفاظه ، وفقهه ، ورجال سنده ، ويزيل مافيه من مشكل ، وقد يبينه بدلالة غيره من الاحاديث ويضبط مايخشى إشكاله ، وغير ذلك ، حتى يتضح لجميع الحضور ، ثم يعيد قراءته ثانية لينتقل الى غيره . وقد يقرؤه على الشيخ أحد الطلاب النابهين .

٦ ـ وقد كره أئمة الحديث للمحدث أن يطيل المجلس ، مخافة املال السامعين ، متأسين بالرسول صلى الله عليه وسلم ، الذي كان يتخول أصحابه رضي الله عنهم بالموعظة في الايام مخافة السآمة عليهم ، كما استحبوا التنويع في التحديث ، وختم المجالس ببعض النوادر والانشادات(١) ، قال النووي وأولاها ما كان في الزهد ومكارم الاخلاق(٢) .

ويختتم الشيخ مجلسه بالاستغفار وحمد الله تعالى على نعمة وآلائه(٣)

٧ ـ وكره العلماء أن يقوم المحدث لأحد ، وحرصوا على أن يسود حلقات الحديث الخشوع والسكينة والوقار ، فان رفع أحد صوته في المجلس زجره الشيخ ، وكان الامام مالك يفعل ذلك ويقول : (قال الله تعالى : [يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي](٤) فمن رفع صوته عند حديثه فكأنما رفع صوته فوق صوته .)(٥) وما زالت مجالس الحديث على نحو هذا النظام حتى عصرنا الحاضر في الهند وباكستان وبعض البلاد العربية وفي الحبشة وغيرها من بلاد المسلمين .

ب ـ مجالس الاملاء :

٨ ـ لم يكتف علماء السلف بإباحة كتابة الحديث ، بل حضوا

---

(١) أنظر الجامع لاخلاق الراوي ص١٣٦ : آ وجامع بيان العلم ص ١٠٥ ج ١ .
(٢) أنظر تدريب الراوي ص ٣٤٣ .
(٣) أنظر كتاب المحدث الفاصل بين الراوي والواعي بتحقيقي فقرة (٨٣٤ـ٨٣٦)
(٤) ٢ : الحجرات
(٥) تدريب الراوي ص ٣٣٦ .

طلابهم على كتابته ، فعقدوا مجالس لاملاء الحديث ، وكان لا يتصدر لذلك الا من بلغ رتبة عالية من العلم والمعرفة ، لان الاملاء أعلى مراتب الرواية ، واستحبوا لمن كان أهلا لذلك أن يعقد حلقات الاملاء ليستفيد منه الطلاب، وكان الشيوخ يخصصون أياما معينة للاملاء من كل أسبوع .

٩ ـ ولا نكون من المغالين اذا عددنا أولى مجالس الاملاء في الاسلام تلك المجالس التي كانت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم يملي فيها ما يتنزل من آيات الكتاب المبين على كتّاب الوحي ، وبعض المجالس التي سمح فيها لبعض الصحابة كعبد الله بن عمرو ابن العاص وأنس بن مالك بكتابة الحديث بين يديه[١] .

١٠ ـ ثم أملى بعض الصحابة الحديث على خواص طلابهم ، كما كتب غير واحد من التابعين عن كثير من الصحابة ، ثم ما لبثت أن اتسعت مجالس الاملاء ، فكان الصحابي المشهور واثلة بن الاسقع (ـ٨٥ هـ) يملي على الناس الحديث وهم يكتبون بين يديه[٢] .

ثم تصدر كثير من التابعين للاملاء[٣] وتتالى بعدهم اتباعهم وأهل العلم من بعدهم ، وازداد تشجيع العلماء للطلاب على كتابة الحديث ، حتى ان بعضهم كان يقول : (ينبغي للطالب ألا تفارقه محبرته وصحفه لئلا يعرض له من يحدثه بما يحتاج الى كتبه .)[٤]

١١ ـ واستحب أهل العلم للمحدث في الاملاء أن يختار مايستفيد منه كافة الناس ، وكرهوا املاء ما يدخل الشبه والالتباس ، فكان العلماء يملون الاحاديث

---

(١) أنظر أصول الحديث ص ٤٤٤ عن سنن الدارمي وتقييد العلم والالماع وجامع بيان العلم وفضله .

(٢) أنظر أصول الحديث ص ٤٤٥ .

(٣) أنظر السنة قبل التدوين ص ٣٢١ وما بعدها .

(٤) أصول الحديث ص ٤٤٥ عن الجامع لاخلاق الراوي .

الفقهية ، التي تفيد معرفة الاحكام في العبادات والمعاملات ، كما استحبوا أن يبين الشيخ مايرويه من حيث الصحة والمعنى ، وفي هذا يقول الامام سفيان بن عيينة : (ان العالم الذي يعطي كل شيء حقه)[1] .

١٢ ــ واستحب العلماء أن يتخذ الشيخ مستمليا يبلغ عنه ما يحدث به وما يمليه ، ومن أقدم من عرفنا أنه اتخذ مستمليا الامام شعبة ابن الحجاج (ــ ١٦٠ هـ) ، وقد اضطر المحدثون الى اتخاذ المستملين عندما كثر طلاب العلم ، وتدفقوا على مجالسه من كل حدب وصوب، وكانت مجالس بعضهم لا يكفيها مستمل ولا اثنان ، حتى بلغ المستملون لبعض المحدثين سبعة وأكثر من ذلك ، يبلغ كل واحد منهم صاحبه الذي يليه[2] ، ولاعجب في هذا اذا عرفنا أن المساجد ضاقت ببعض حلقات الاملاء ، فاضطر العلماء الى الجلوس في الفلاة أو في الرحبات والميادين الكبيرة ، حتى ان عاصم بن علي الواسطي (ــ ٢٢١ هـ) كان يجلس على سطح في رحبة واسعة ، وينتشر الخلق حوله ، ويكثرون عليه ، فيضطر الى إعادة حديث أربع عشرة مرة ، ومستمليه فوق نخلة معوجة يبلغ الناس عنه[3] .

١٣ ــ وكثر الحضور في حلقات الاملاء حتى بلغ الحاضرون في مجلس أبي اسحاق ابراهيم بن علي الهجيمي البصري ــ (المولود نحو سنة ٢٥١ والمتوفى في أواخر عام ٣٥١) ــ مسند عصره ثلاثين ألف رجل ، فيمتلىء شارع الهجيمي بالناس ، فكان يجلس على سطح له ، ويبلغ المستملون عنه[4] .

وفي مجلس أبي مسلم الكجي بلغ الحاضرون أربعين ألف كاتب

---

(١) أصول الحديث ٤٤٥ عن تقدمه الجرح

(٢) المرجع السابق ص ٤٤٥ .

(٣) أنظر أصول الحديث ص ٤٤٦

(٤) أنظر الجامع لاخلاق الراوي ص ١١٤ :آ والبداية والنهاية ج ١١ ص٢٥٤ وشذرات الذهب ٨/٣ .

سوى النظارة [1] .

ولا عجب في هذا اذا وقفنا على أخبار كثيرة تروي لنا ان بعض طلاب الحديث كانوا يأخذون مواضعهم في بعض مجالس الحديث عقب صلاة العشاء ليشهدوها عقب الفجر من اليوم الثاني .

١٤ ــ ومن ثم كانت لمجالس الحديث وحلقات الاملاء مكانة رفيعة ، ودرجة عالية حتى تمناها واشتهاها أكابر الخلفاء ، وفي هذا يروي لنا القاضي الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي بسنده عن أبي عاصم الضحاك بن مخلد قال : (دخل المأمون مصرفقام إليه فرج النوبي أبو حرملة ، فقال: يا أمير المؤمنين الحمد لله الذي كفاك أمر عدوك ، وأدان لك العراقين والحرمين ، والشامات والجزيرة ،والثغور والعواصم ، وأنت العالم بالله ، وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : ويلك يافرج ، أو قال ويحك قد بقيت لي خلة" . قال : وماهي يا أمير المؤمنين ؟ قال : جلوس" في عسكر ومستمل تحتي يقول : من ذكرت رضي الله عنك ؟ فأقول : حدثنا الحمادان : حماد بن سلمة بن دينار وحماد بن زيد بن درهم ، قالا : حدثنا ثابت البناني عن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من عال ابنتين أو ثلاثا ، أو أختين أو ثلاثا حتى يَمُتنَ أو يموت عنهن كنت أنا وهو في الجنة كهاتين » وأومأ حماد بأصبعه الوسطى . »[2] .

١٥ ــ وكان المستملي يستنصت الناس في أول المجلس بعد تلاوة

---

(١) أنظر الجامع لاخلاق الراوي ص ١١٣ : ٢ .

(٢) المحدث الفاصل ص ١٨٠ فقرة (٣٥) ولهذا الحديث شواهد في البخاري بلفظ (أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا) وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى . وأخرج الامام مسلم بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم : « من عال جاريتين حتى تبلغا ، جاء يوم القيامة أنا وهو » وضم أصابعه صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٢٧ .

القرآن الكريم ، ويعلن ابتداء الاملاء بالبسملة وحمد الله تعالى والصلاة والسلام على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم يقول للشيخ : (من ذكرت رحمك الله ، أو رضي الله عنك)[1]؟ ونحو هذا ، فيملي المحدث ويبلغ المستملي ، وعلى هذا كانت مجالس الاملاء منذ منتصف القرن الهجري الثاني .

١٦ ــ واستحب العلماء أن يكون المستملي ذكيا متيقظا من أهل التحصيل ، جهوري الصوت ، حسن البيان ، فصيح اللسان ، يتبع لفظ المحدث ، يشرف على الناس في تبليغه ، فيجلس على مرتفع أو يقف قائما ، وقد ذكر الخطيب البغدادي بعض آداب المستملي ، مما لا يتسع المقام لذكره .

١٧ ــ وقد بين العلماء أصول كتابة الحديث ، وضبطه وتقييده ، ومعارضته ومقابلته بعد مجالس الاملاء ، وأكدو ضرورة ذلك وأهميته ، كماذكروا أصول التخريج على الحواشي ، وتصحيح الأخطاء وما يلحق بهذا . مما يؤكد عظيم عنايتهم ، وكبير اهتمامهم بالحديث النبوي منذ صدر الاسلام .

وان هذه الصفحات القليلة لتذكرنا بتلك النهضة العلمية العظيمة ، التي ازدهرت بها الدنيا في ظل الاسلام ، حينما انطلقت أفواج المسلمين من بيوت الله ، تبدد الظلام وتضيء مشارق الدنيا ومغاربها تحطم الاغلال والقيود ، وتحرر العباد من العبودية لغير الله ، وتخرجهم من نقمة الجهل الى نعمة الايمان والعلم ، يوم كان الغرب يئن تحت سياط الذل وألوان الظلم والاستعباد ، وتشد من عزيمتنا لنضاعف الجهود ونعيد لأمتنا مجدها العظيم على دعائم الايمان ، ونور الاسلام ، وطريق العلم والعمل .

ج ــ آداب رواية الحديث

١٨ ــ لما كان مقام التحديث

---

(١) أنظر الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع ص ١١٧-١١٩ .

مقاما رفيعا ، لأن المحدث يخلف الرسول صلى الله عليه وسلم في تبليغ الناس أحكام الشريعة وبيانها ، وينقل أخباره وهديه وصفاته وغير ذلك ــ بين العلماء آداب المحدث وصفاته وآداب طالب الحديث وسلوكه وما يلحق بهما • معتمدين في ذلك على ماصح عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة والتابعين في مجالسهم وتعليمهم وتبليغهم ، مستنبطين مما كانوا عليه ومما كان عليه من جاء بعدهم أهم هذه الآداب التي فصلوا القول فيها في كتب مستقلة[1] ، أو في فصول خاصة من تواليفهم ومصنفاتهم[2] •

آ ــ آداب المحدث :

١٩ ــ من أول الصفات التي أوجب العلماء على المحدث أن يتصف بها اخلاص النية لله عز وجل ، فيصحح نيته ، ويطهر قلبه من أعراض الدنيا وأدناسها ، فلايبتغي من وراء تصدره للتحديث جاها ، أو رياسة ، أو تكثير اتباع ، وتعداد مريدين ، أو منافع أخرى ، بل يكون همه وغايته نشر الحديث وتبليغه عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، لا يبتغي عنه بديلا ، « فانما الاعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » • وقد امتنع كثير من السلف عن التحديث اذ لم تحضره النية ، كسفيان الثوري وحبيب بن أبي ثابت وسلام ابن سليم وغيرهم وحق لهؤلاء أن يمتنعوا عن التحديث الى أن تحضرهم النية ، لان للعلم وللاسانيد وسرد الحديث وكثرة الطلاب في مجلس الحديث خيلاء في القلب ــ كما قال حماد بن زيد ــ قد لا يسلم منها الا من عصم الله عز وجل •

٢٠ ــ واختلف العلماء في السن الذي يحسن أن يتصدى فيه المرء للتحديث ، والافضل أن يحدث متى احتيج الى ما عنده في أي سن

(١) كتاب الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (المتوفى سنة ٤٦٣) يقع في (١٩٤) ورقة من القطع المتوسط ولا يزال الكتاب مخطوطا أدعو الله عز وجل أن يوفقني في متابعة تحقيقه ونشره .

(٢) كما فعل الرامهرمزي في كتابه المحدث فقرة (٨٢٥ـ٨٧١) وما خصصه الحاكم في كتابه معرفة علوم الحديث ص ١٤١ وما بعدها وابن الصلاح في مقدمته ص ٩٦ـ١٠٥ والسيوطي في تدريب الراوي ص ٣٣٢ـ٣٥١ .

كان، وينبغي أن يمسك عن التحديث اذا خشي التخليط لهرم ، أو خرف أو مرض ، أو عمى وغير ذلك مما يحول دون أداء المروي أداءا صحيحا ، ويختلف ذلك باختلاف الناس •

٢١ ــ وأوجب العلماء أن يكون المحدث حسن الاخلاق ، حميد السيرة ، جميل الشيم ، متمسكا بالسنة •

وآثروا أن لا يحدث في حضرة من هو أولى منه ، لسنه أو علمه وغير ذلك أدبا معه واحتراما له ، وكان كثير من السلف لا يحدث في حضرة من هو أولى منه •

٢٢ ــ واستحب العلماء للمحدث اذا أراد حضور مجلس التحديث ــ أن يتطهر طهوره للصلاة ، ويتطيب ويستاك ، ويقبل على الناس نظيف اللباس حسن السمت والهيئة ، ويتمكن من جلوسه بوقار وهيبة ، تعظيما لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

وقد كان الامام مالك رحمه الله يفعل ذلك فقيل له • فقال : أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحدث الا على طهارة •

٢٣ ــ وكره العلماء أن يحدثوا في الطريق ، أو على غير قرار ، كما كرهوا أن يحدثوا على غير طهارة •

٢٤ ــ واستحبوا أن يقبل المحدث على جميع سامعيه ، ولا يخص بالحديث بعضهم دون بعض •

كما كرهوا أن يسرد الحديث سردا ، وأكدوا وجوب تحديثه على وجه يستطيع جميع الطلاب فهمه وادراكه •

٢٥ ــ وأوصوا بوجوب مراعاة أحوال طلاب الحديث ومداركهم ، وعدم تحديث من هو ليس أهلا لذلك احتراما لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم •

واستحبوا التدرج في تحديث الطلاب بما ينفعهم ويقوي دينهم ،

ويوقفهم على أحكام العبادات والمعاملات ، كما كرهوا اختيار الغرائب والمنكرات ... وحضوا على التنويع والتغيير دفعا للملل .

٢٦ ــ وأوجبوا على المحدث أن يصلي على الرسول صلى الله عليه وسلم كلما ذكره ، وأن يترضى على الصحابي عند ذكره ، واستحب العلماء بل استحسنوا أن يترحم المحدث على التابعين عند ذكرهم وأن يذكر شيوخه بالخير والثناء . اعترافا بجميلهم وتعليما للسامعين وتهذيبهم .

ب ـ آداب طالب الحديث :

٢٧ ــ نص العلماء على آداب كثيرة يجب أن يتحلى بها طالب الحديث ، لتصير خلقه وديدنه ، ومن أبرز ما ذكروه وجوب اخلاص النية لله في طلبه الحديث ، وحذروا من أن يكون الطلب مطية لاغراض دنيوية لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله ، لا يتعلمه الا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة »(١)

٢٨ ــ ولا بد للطالب من أن يتحلى بكريم الاخلاق ، وجميل الآداب ، ويجد في طلب الحديث ، ويستفرغ الوسع في تحصيله ، فيبدأ السماع من شيوخ بلده ، ويكثر مجالستهم ، ويتخرج في حلقاتهم ثم يرحل الى غيرهم من العلماء في البلدان الاخرى ، كما فعل بعض الصحابة وكثير من التابعين ومن بعدهم ، حتى صارت الرحلة في طلب الحديث من مميزات أهل الحديث وطلابه . وفي الرحلة يقول بعض المحدثين الشعراء :

توقف ولا تقدم على العلم حادسا
فحدس الفتى في العلم يبدي المعايبا
فليس طلاب العلم بالحدس مدركا
ولو كان فيهم المرء كالنجم ثاقبا
ولكن بترحالٍ وحلٍ من الفتى

(١) اخرجه أبو داود وابن ماجة . أنظر سنن ابن ماجة ص ٩٢ حديث ٢٥٢ ج ١ . وعرف الجنة ريحها .

وانضائه في الحالتين الركائبا
وقضقضة الأوجال منه ضلوعه
وخلخلة الأهوال منه الترائبا
واصباحه في المشرقين مشارقاً
لشمسها والمغربين مغاربا(١)

وفي الرحلة أنشد الحطيم قائلا في ابن عيينة :

سيرى نجاءً وقاك الله من عطبٍ
حتى تلاقي بعد البيت سفيانا
شيخ الأنام ومن جلت مناقبه
لاقى الرجال وحاز العلم أزمانا
حوى البيان وفهما عاليا عجبا
اذا ينص حديثاً نص برهانا
قد زانه الله أن دان الرجال له
فقد يراه رواة العلم ريحانا
يضم عَمْرا الى الزهري يسنده
وبعد عمر الى الزهري صفوانا
فعنهم عن رسول الله يوسعنا
علماً وحكماً وتأويلا وتبيانا(٢)

٢٩ ــ وحض العلماء طلاب الحديث على أن يتلقوا الحديث ويتحملوه عن الشيوخ الثقات ، لا يتتبعون الاحاديث الغريبة والمنكرة ، ولا يعتمدون على ما يجدونه في الصحف من غير أن يسمعوا من الشيوخ • وفي هذا يقول بعضهم :

ولا تضلُ العلوم عنك ولا
يكون اسنادها من الصحف •

وقال آخر يذم قوماً لا رواية لهم :

ومن بطون كراريس روايتهم
لو ناظروا باقلا يوما لما غلبوا
والعلم ان فاته اسناد مسنده
كالبيت ليس له سقف ولا طُنُب(٣)

٣٠ ــ وعلى الطالب أن يحرص على العمل بما يسمع من أحاديث العبادات والآداب والفضائل ، ليكون ممن يعمل بما يعلم ، وهذا سبيل جيد لحفظ الحديث • قال ابراهيم بن اسماعيل بن مُجمع : (كنا نستعين على حفظ الحديث

---

(١) المحدث الفاصل فقرة ١٠٢ صفحة ٢١٢ . والنضو : الدابة التي أهزلتها الأسفار .
(٢) المحدث الفاصل فقرة ١١٧ ص ٢٢٥ هذه مختارات من قصيدة طويلة .
(٣) المحدث الفاصل ص ٢١٢ . والطنب : حبل الخباء ، والمقصود بها هنا الدعائم .

بالعمل به)[1] ، وقال عمرو بن قيس الملائي : (اذا بلغك شيء من الخير فاعمل به ولو مرة تكن من أهله)[2]

٣١ ـ وعلى طالب الحديث احترام شيوخه وتوقيرهم، ففي هذا اجلال العلم وأسباب الانتفاع به ، وقد جاءت السنة بهذا ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « ليس من أمتي من لم يُجلّ كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا حقه »[3] ، وقد امتثل لهذا الحديث المحدثون وطلاب العلم ، فلقي الطلاب رعاية وعناية من شيوخهم ، كما لقي الشيوخ الاحترام والتوقير والطاعة من طلابهم .

٣٢ ـ ولا يليق بطالب العلم أن يحول بينه وبين طلبه كبر أو أنفة وعزة أو حياء حتى لا يفوته العلم ، قال عمر رضي الله عنه (من رقّ وجهه دق علمه)[4] أي من خجل في طلب العلم قل علمه . وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها (نعم النساء . نساء الأنصار ، لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين)[5] وقال الأصمعي : (من لم يحتمل ذلّ التعليم ساعة بقي في ذل الجهل أبدا)[6] .

٣٣ ـ وقد نبه العلماء الطلاب الى عدم اطالتهم على شيوخهم حتى لا يضجروهم ، كما نبهوا الى التزام ما يرضيهم والبعد عما يسخطهم ، لتكمل الفائدة ، ويستمر التلقي ، كما أشاروا الى وجوب ملازمة المشايخ الثقات . والحق أن كثيرا من الطلاب كانوا يفخرون بخدمة شيوخهم ، ويعتزون بالاخذ عنهم ، فقد لازم أبو هريرة رضي الله عنه الرسول صلى الله عليه وسلم وخدمه على لقيمات من أجل سماع العلم ، وتشرف بخدمته أنس وعبد الله بن مسعود وكثير من أكابر

(١) و (٢) تدريب الراوي ص ٣٤٧ .
(٣) أخرجه الامام أحمد والطبراني في معجمه الكبير باسناد صحيح . أنظر مجمع الزوائد ص ١٢٧ جـ ١ .
(٤) تدريب الراوي ص ٣٤٩ .
(٥) فتح الباري ص ٢٣٩ جـ ١ .
(٦) تدريب الراوي ص ٣٤٩ .

الصحابة في سبيل التعلم بين يديه والتأدب عليه صلى الله عليه وسلم ، وعلى هذا سار كثير من التابعين ومن جاء بعدهم ، حتى ان ابن شهاب الزهري لزم ابن المسيب ثماني سنين ولزم عبيد الله بن عتبة المسعودي وخدمه ، وكان يستقي له الماء حتى ظنه بعضهم غلامه ، كل ذلك طلبا للعلم وحرصا عليه، وعلى نهج الزهري سار خلق كثير من طلاب العلم[1] •

٣٤ ــ والى جانب هذا كله نصح العلماء طلابهم بوجوب تعاونهم على طلب العلم ، وحذروهم من كتمه عن بعض اخوانهم ، لما أثر في هذا من الزجر الشديد وعظيم الوعيد •

٣٥ ــ وبينوا أن تكثير طرق الحديث والسماع من الشيوخ والرحلة في طلبه ــ لا ينفع الطالب اذا لم يقرن بالفهم والدراية ، ومن ثم حث العلماء طلابهم على التفقه والفهم والحفظ ، كما حضوهم على معرفة ما يحملون من حيث الصحة والضعف، ورأوا ضرورة معرفة هذا سندا ومتنا ، لغة ومعنى ، حتى لا يخفى على الطالب شيء ، كما حثوهم على مذاكرة ما يسمعون ، ومقابلة مايكتبون ، كيلا يند عن الطالب لفظ ، أو تفوته فائدة •

وبعد فتلك لمحة سريعة موجزة عن مجالس الحديث وآداب شيوخه وطلابه ، أرجو أن تذكرنا بما كان عليه السلف الصالح لنتأسى بهم شيوخا وطلابا ، ونكون في عداد من قال فيهم الله عز وجل : [الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب] •

والحمد لله رب العالمين •

د• : محمد عجاج الخطيب

● □ ●

(١) أنظر السنة قبل التدوين ٤٢٠ وما بعدها وص ٤٩٠ •